موضوع الخُطْبَةُ: آفَةُ التَّسْوِيفِ وَتَأْجِيلُ التَّوْبَةِ

الحمدُ للهِ الَّذي أمرَ بالمسارعةِ إلى الخيراتِ، ونهى عن التَّواني والتَّسويفِ في الطاعاتِ، وأشهدُ أن لا إلهَ إلَّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُه ورسولُه، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وصحبِهِ أجمعين، وسلَّم تسليمًا كثيراً.

أيُّها الإخوةُ في اللهِ:
من الأسلحةِ الشيطانيَّةِ التي يصدُّ بها عدوُّ اللهِ عدوَّهُ الإنسانَ عن الخيرِ، ويقعدُهُ في زوايا العجزِ والخمولِ والكسلِ :التَّسويفُ.
ومعناه: المماطلةُ وتأجيلُ أداءِ الواجباتِ والحقوقِ.
إنَّه أمرٌ أجمعَ العقلاءُ على ذمِّهِ؛ لأنَّه هادمٌ للعمرِ بلا فائدةٍ، ومضيِّعٌ للوقتِ بلا منفعةٍ، ومفوِّتٌ للمصالحِ الدنيويَّةِ والأخرويَّةِ.
ومن اتَّخذهُ طريقًا عظُمت تبعاتُهُ ودامت حسراتُهُ، فمَن زرعَ (سوف) لا بُدَّ أن يحصدَ يومًا (ليت).
إنَّ التَّسويفَ من شرِّ الأدواءِ التي تُخالطُ القلبَ وتُخامرُ العقلَ، لأنَّه إيحاءٌ مُضلٌّ من إيحاءاتِ الشيطانِ، الذي قال لربِّهِ مقسمًا: ﴿لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ (النساء: 118-119)
وقوله تعالى: ﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾، قال ابنُ كثيرٍ في تفسيره: أي أُزيِّنُ لهم تركَ التوبةِ، وأعدُهمُ الأمانيَّ، وآمرُهم بالتَّسويفِ والتَّأخيرِ، وأُغرِّيهم بأنفسِهم.
ورُوي عن أنسِ بنِ مالكٍ رضي الله عنه: "التَّسويفُ جندٌ من جنودِ إبليسَ عظيمٌ، طالما خدعَ بهِ الخلقَ"
(كتاب هل أنت من أهل الغفلة، ص 11)

ولقد أخبر كتابُ اللهِ عن أولئك الذين نسُوا أنفسَهم فاغترُّوا بالأمانيِّ، ولم يُقدِّموا لأنفسِهم من صالحِ العملِ ما ينفعُهم في آخرتِهم حتى باغتهُمُ الموتُ، فقال تعالى: ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ (الحديد: 14).
وما زال القرآنُ والسنةُ يُناديانِ على العبادِ بقطعِ حبلِ التَّسويفِ بسيفِ الإنجازِ والمسابقةِ، يقولُ تباركَ وتعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران: 133)
وهذا رسولُ الله (ﷺ) يحثُّنا على اغتنامِ العمرِ، ويأمرُ بالمبادرةِ بالأعمالِ قبل تغيّرِ الأحوالِ، فيقولُ: "بادِروا بالأعمالِ سبعًا هل تنتظرون إلا فقرًا مُنسيًا أو غنىً مُطغيًا أو مرضًا مُفسدًا أو هرمًا مُفندًا أو موتًا مُجهزًا أو الدجالَ فشرُّ غائبٍ ينتظرُ أو الساعةُ فالساعةُ أدهى وأمرُّ". (رواه الترمذي - حديث حسن)
إنَّ أكثرَ أهلِ النارِ من المسوِّفين، لأنَّ المسوِّفَ يقضي دهرَهُ متعدِّيًا على حدودِ اللهِ، مُفرِّطًا في جنبِه، حتى إذا جاءَه الموتُ، وكُشف عنه الغطاءُ، وعاينَ الحقائقَ، تحسَّر وندِم، وتمنَّى التأخيرَ أو الرَّجعةَ، وأنَّى له ذلك، وقد فات الأوان!
قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (99) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (المؤمنون: 99-100)
وقال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ (10) وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (المنافقون: 10-11)

أيُّها الإخوةُ في الإسلام:
كم هي رسائلُ التذكيرِ والتحذيرِ من ربِّنا إلينا كي نتقرَّبَ منه أكثرَ فأكثرَ، ومع ذلك نجدُ الإحجامَ والتقصيرَ، والأمانيَّ والتَّسويفَ تُمنِّي الإنسانَ بأنَّ العمرَ طويلٌ، وأنَّ في المستقبلِ فُسحةً وفرصةً.
ابنُ العشرين يقول: أستقيمُ حين أبلغُ الثلاثين، وأهلُ الثلاثين يقولون: إلى الأربعين، وأهلُ الأربعين إلى الخمسين، بل ربما تجدُ من هو في السبعين أو الثمانين أو أكثرَ، وهو لا يزالُ على تقصيرِه وضعفِ صلتِه باللهِ تعالى.
وهكذا كلُّ إنسانٍ يُسوِّفُ ويُسوِّفُ، والمشكلةُ أنَّه كلما كَبِرَ، كَبِرَ معهُ تعلُّقُهُ بالدنيا، وصغُرَت همَّتُهُ لآخرته.
فتضعفُ عندئذٍ الإرادةُ، وتفترُ العزيمةُ، وتركنُ النفسُ إلى الكسلِ والتَّراخي.

ولعلَّنا في ضوءِ هذا السببِ نفهمُ استِعاذةَ النبيِّ (ﷺ) الدائمةَ من العجزِ والكسلِ، إذ كان كثيرًا ما يدعو في الصباحِ والمساءِ بهذا الدعاءِ:
"اللَّهُمَّ إنِّي أعوذُ بكَ منَ الهمِّ والحزنِ، وأعوذُ بكَ منَ العجزِ والكسلِ، وأعوذُ بكَ منَ الجبنِ والبخلِ، وأعوذُ بكَ من غلبةِ الدَّينِ وقهرِ الرجالِ". (رواه أبو داود وغيره عن أبي سعيد الخدري)

أيُّها المسلمون:
إذا كان عقابُ من يُسوِّفُ أعمالَه الدنيويةَ هو ضياعُ الفرصِ الذهبيَّةِ، وما يتبعُها من الهمِّ وتأنيبِ الضميرِ، فإنَّ عاقبةَ من يُسوِّفُ التوبةَ والاستقامةَ ويتبعُ أهواءَه إلى أجلٍ غيرِ مسمّى هي تعريضُ النفسِ لأهوالِ الجحيمِ والعياذُ بالله.

ومن أعظمِ أسبابِ التَّسويفِ: نسيانُ الموتِ والدارِ الآخرةِ، مع طولِ الأملِ والأمنِ من مكرِ اللهِ تعالى، لأنَّ الإنسانَ إذا خافَ بادرَ، وإذا أَمِنَ توانى وفرَّط.
والحقُّ أنَّ الموتَ قريبٌ، وقربُهُ أكثرُ مما نتصوَّر؛ قد يكونُ كلمحِ البصرِ أو أقربَ، خاصةً في زماننا الذي يخطفُ فيه الموتُ الناسَ وهم أصحَّاءُ: بالذبحةِ الصدريةِ، أو السكتةِ القلبيةِ، أو بحادثٍ من حوادثِ الطرقِ...
ومن لم يمتْ بالسيفِ ماتَ بغيرِه تعدَّدتِ الأسبابُ والموتُ واحدُ

ولهذا يقولُ رسولُ الله (ﷺ): "أكثروا ذِكرَ هاذمِ اللَّذَّاتِ - يعني الموتَ". (رواه الترمذي عن أبي هريرة).
فتذكُّرُ الموتِ والآخرةِ من أعظمِ البواعثِ على تحسينِ الصلةِ بين العبدِ وربِّ العالمين، ونبذِ التَّسويفِ والأملِ الكاذبِ الذي يُقعِدُ المرءَ عن العملِ الصالح.

تزَوَّدْ منَ التَّقوى فإنَّكَ لا تدري إذا جَنَّ ليلٌ هل تعيشُ إلى الفجرِ
فكم من فتى أمسى وأصبحَ ضاحكًا وقد نُسجت أكفانُه وهو لا يدري
وكم من صغارٍ يُرتجى طولُ عمرِهم وقد أُدخلت أجسادُهم ظلمةَ القبرِ
فداوِمْ على تقوى الإلهِ فإنَّها أمانٌ منَ الأهوالِ في موقفِ الحشرِ

اللَّهُمَّ اجعلنا منَ التوَّابينَ الأوَّابين، ولا تجعلنا من الغافلينَ المسوِّفين.
اللَّهُمَّ أيقِظْ قلوبَنا من غفلتِها، ونفوسَنا من كسَلِها، واهدِنا سُبلَ الرَّشادِ، وبارِكْ لنا في أعمارِنا وأعمالِنا.
اللَّهُمَّ اجعلنا من الذينَ يُسارِعونَ في الخيراتِ، ويستبقونَ إلى مرضاتِك، واغفرْ لنا ما قدَّمنا وما أخَّرنا وما أسررنا وما أعلَنَّا.
اللَّهُمَّ اختمْ بالصالحاتِ أعمالَنا، وبالسعادةِ آجالَنا، وبالجنَّةِ مثوانا ومأوانا.

وصلِّ اللهمَّ وسلِّم على نبيِّنا محمَّدٍ، وعلى آلِهِ وصحبِهِ أجمعين،
والحمدُ للهِ ربِّ العالمين.